المحاضرة الرابعة:

تأثير العلماء الجزائريين ببلاد أفريقيا جنوب الصحراء:

أ- تنقل العلماء الجزائريين إلى بلاد السودان: تنقل الكثير من العلماء الجزائريين خلال الفترة الحديثة إلى بلاد جنوب الصحراء، وقلما نجد عالما تلمسانيا كان أوتواتيا لم يزر بلاد السودان خاصة المراكز الثقافية كتمبوكتو، جاو، جيني، شنقيط، ولاتة، للإشارة أن حواضر المغرب الأوسط خلال العهد الزياني كانت تربطها علاقة صداقة ومودة بملوك السودان الغربي، وذلك منذ عهد ملك مالي المشهور منسا موسى، فكانت الدولتان المالية والزيانية تربطهما علاقات ثقافية لما كانت تمثله تلمسان كمركز اشعاع ثقافي، وإذا كانت تلمسان لم تزل دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس، فإن ابن بطوطة ذكر لنا أ، أحد أبناء الشيخ "اللبن" التاجر التلمساني قد درّس ملك مالي "منسا موسى" في نياني عاصمة المملكة، ولما كبر وأصبح ملكا جاءه الشيخ التلمساني في خصومة ففرّبه إليه وأعطاه عن ذلك 700 مثقال ذهب وأمره أن لا ينقطع.

ومن النخبة التلمسانية التي تركت بصماتها بالسودان الغربي على المستويات السياسية والاجتماعية والفكرية "الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني" من خلال مجهوداته الدعوية والاصلاحية ومنهجه المتميز في التدريس والتأليف، وقد ذكره صاحب البستان في كتابه بقوله: "كان مقداما فصيح اللسان محبا للسنة، جدليا نظارا محققا له تآليف"، وشهرته كعالم جليل قد سبقته إلى أرض السودان مقارنة بعلماء عصره، وهو الامر الذي فتح أمامه أبواب قصور ملوك السودان، فزار بلاد الهوسا بنيجيريا واستقر بتكدة أين اشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد، ثم انتقل إلى "كانو" أين التقى بملكها "محمد رمفا" الذي طلب منه طريقة الحكم الإسلامي فكتب له رسالة حول ما يجب على الأمير من حسن النية والإمارة.

وتزامنت فترة انتقال المغيلي إلى بلاد السودان مع حكم "الأسقيا محمد" ملك السزنغاي الذي كانت تربطه به علاقة جيدة فتقابلا وتحدثا عن أمور الحكم، وهذا ما يؤكده ابن مريم التلمساني في بستانه قائلا: "...ثم ارتحل إلى بلاد التكرور فوصل إلى كاغو واجتمع مع سلطانها محمد، وجرى على طريقته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألف فيها تأليفا أجاب فيه عن مسائل عدّة وكتابا آخر أجاب فيه عما يجب للحكام نحو المحكومين"

كما اهتم الشيخ المغيلي بالتعليم بإنشائه للمدارس القرآنية وبنائه للمساجد كالمسجد الذي أقامه بقرية إياتول بالقرب من أغاديس والمعروف باسمه، مايزال قائما حتى اليوم، كما درس أهل "تكدة" وانتفعوا بعلمه وهذا ما أكده أحمد بابا التمبكتي بقوله: "...ثم دخل بلاد

تكدة واجتمع بصاحبها وأقرأ أهلها وانتفعوا به، درس العلوم القرآنية هناك، كما تتلمذ على يديه لفيف من الطلبة أغلبهم من أصل موريتاني، ثم دخل بلاد كانو وكاتسينا واجتمع بصاحب "كانو" واستفاد عليه، وكتب رسالة في أمور السلطنة يحثه على اتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"

وبرز تأثير المغيلي على رواد العلم الذين تلقوا عنه أمور الدين منهم الشيخ العاقب الأصنمي المسوفي الصنهاجي، الذي ينتمي إلى عائلة آقيت المشهورة في تمبوكتو، ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي وغيرهم من الطلبة الذين لازموه، واضحوا علماء وفقهاء بلاد السودان من بعده، ساهموا بدورهم في نشر أفكاره الإصلاحية التي كانت سببا في ظهور نهضة فكرية وحركات إصلاحية أخرى عديدة في بلاد الهوسا وماسينا من بعده، أبرزها حركة الشيخ "عثمان دان فوديو" في شمال نيجيريا، واحمدو لوبو في بلاد الماسينا، الحاج عمر تال الفوتي في بلاد التكرور.

ومن العلماء الجزائريين الذين اشتهروا بعلمهم في بلاد السودان الغربي الشيخ محمد بن يحي بن ايدير التادلسي الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، والعالم الحاج الغلّاوي الذي كان يشرف على ركب الحجيج في بلاد التكرور، والشيخ مخلوف بن علي صالح البلبالي الذي انتقل إلى تمبوكتو ثم إلى كاتسينا، وكانو، حيث بدأ التدريس بها والإفتاء والتصدي للقضاء، وذكر السخاوي عالما آخر من علماء بجاية يدعى أبو بكر الموصل الذي زار هو الآخر مدينة غاو من أجل ممارسة مهنة التعليم في مدارسها خلال عهد الأسقيين في مملكة سنغاي.

ومن جهتهم ساهم علماء توات في تفعيل المشهد الثقافي ودفع الحركة العلمية إلى بلاد السودان الغربي وحتى بلاد السودان الأوسط والشرقي، وذلك عن طريق تجارة القوافل فساهموا في نشر الإسلام والتصوف بنقل ما عندهم من العلوم والمعارف إلى حواضر السودان الغربي كتمبوكتو، وغاو، وجيني، فبفضل مجهوداتهم العلمية انتشرت المدارس القرآنية ومعاهد العلم، وبلغت مستوى رفيعا، وهذا ما جاء في مخطوط منسوب إلى القرن 15م عن رسالة بعث بها ملك برنو "كداي" سنة 1447 إلى بعض العلماء البارزين من توات طالبا منهم ارسال بعثات علمية إلى برنو.

ومن العلماء التواتيين الذين كان لهم الأثر العلمي البارز في بلاد السودان نذكر: أبا القاسم التواتي، وهو من أشهر أئمة المسجد الجامع بتمبوكتو، وكان الملك الأسقيا الحاج محمد يحرص على ملاقاته بعد كل صلاة، أما الشيخ عبد الله البلبالي فكان أول من صلّى بالناس في الجامع الكبير، كما ذكرت أسماء أخرى تواتية من أهل العلم والصلاح كان لهم الأثر العلمي الواضح في بلاد التكرور منهم الشيخان: مصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي

توفي 1744 / 1157ه، والشيخ أبا زيد عبد الرحمان التنيلاني الذي توفي 1775م زارا بلاد التكرور والتقوا بشيوخها وتبادلوا معهم معارف الدين وفقهه.

أما أروان فقد زارها الطالب أحمد التواتي 1762، أما الشيخ مولاي سي حمي 1780م فقد زار بلاد التكرور أربعة مرات، والشيخ محمد أب المزمري 1747م فقد زار تمبوكتو وأروان ودرس بها علوم الدين، أما العالم الزجلاوي فقد عمل مدرسا وقاضيا بإحدى المراكز العلمية ببلاد السودان الغربي، وعلى العموم استطاع علماء توات تأسيس العديد من الزوايا والمساجد في كل المدن والمراكز الحضارية بجنوب الصحراء، ولعبت هذه الزيارات العلمية دورا كبيرا في إرساء دعائم التواصل الثقافي مما ساهم في بروز علماء أجلاء من بلاد السودان الغربي الذين تتلمذوا على علماء جزائريون، ونشطت بدورها الحلقات العلمية ودروس الوعظ والإرشاد، وانتشرت اللغة العربية في كامل ربوع بلاد السودان الغربي والأوسط.

الوفود العلمية من بلاد السودان إلى الجزائر:

قدم الكثير من العلماء وطلبة العلم من بلاد السودان الغربي إلى المدن الجزائرية خاصة منطقة توات، فكانت معظم زواياها تعج بهم كزاوية تنيلان وزاوية كنتة، ومن الأمثلة على هؤلاء العلماء نذكر الشيخ عبد الله الفلاني الذي قدم إلى تنيلان من بلاد التكرور في رحلة لطلب العلم، حيث درس على يد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التواتي التنيلاني الذي دون رحلته تصور لنا من خلالها كيفية قدومه لتوات، ومن الذين قدموا إلى توات من أفريقيا واستقروا بها نجد الشيخ محمد الإدواعي توفي 1784م خرج من بلاد شنقيط على رأس وفد من الحجيج، وعند وصوله منطقة عين صالح توقف عن المسير وترك القافلة، وعاد لزاوية الركب النبوي بأقبلي اين استقبله شيخها أبي نعامة، لكنه فضل الانتقال إلى تمنطيط عند الشيخ البكري بن عبد الكريم الذي استقبله وبقي عنده مدرسا، فاستقر بها وأسس زاوية ومدرسة هناك، لكن في نهاية عمره عاد إلى بلاده واستقر بتمبوكتو.

ونتيجة تعلق السودانيون بتوات وكثرة ترددهم عليها جعل بعض الوافين ينتسبون إليها حتى صاروا لا يعرفون إلا بـ التواتي مثل الحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي الملقب بـ التواتي، الذي كان من كبار العلماء والصالحين.

أما من حيث التأليف فقد استطاعت نخبة من السودانيين أن تصل إلى مرحلة التأليف والتصنيف، فمنهم من تتلمذ وأخذ عن العلماء الجزائريين، كأحمد بن عمر بن محمد أقيت، ,أبو عبد الله أحمد التمبكتي، حيث نجد الخزائن والمكتبات التواتية حافلة بالمؤلفات السودانية لمخطوط: "ضياء التأويل في تفسير القرآن" للشيخ عثمان بن فودي، ومخطوط شرح

الولاتي على نظم المكودي، ومخطوط: "كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج" لأحمد بابا التمبكتي.